مجلة العلوم العربية والإنسانية
جامعة القصيم، المجلد (11)، العدد (1)، ص ص 113-154، (محرم 1439هـ/ سبتمبر 2017)

محمد حسن عواد
"أسئلة الريادة والإبداع"

د. صالح بن عبدالعزيز المحمود
الأستاذ المساعد في كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث. يعد الشاعر السعودي محمد حسن عواد أحد أهم الأسماء التنويرية في الذاكرة الاجتماعية والثقافية في المملكة العربية السعودية؛ فقد كان ظهوره وبزوغ نجمه الإصلاحي والإبداعي في مرحلة كان المجتمع فيها يحاول النهوض من كبوات عديدة رانت عليه فترة من الزمن، وكان العواد وقتذاك متفتحاً، وشغوفا بالعلم والمعرفة، ومن جهة أخرى كان محباً لمجتمعه، مشفقاً عليه، راغباً في إصلاحه وتنويره بكل ما أوتي من قدرة.

وحين يُذكر محمد حسن عواد تُذكر ريادته وتفرده بين أبناء زمنه، وقدرته الفريدة على الكتابة في سياقات إصلاح المجتمع والنهوض به، ولم يكن غريباً أن يكون العواد اسماً ثابتاً، ورقماً صعباً في كتابات الذين رصدوا الحركة الأدبية والاجتماعية في المملكة، وفي كتابات الذين تحدثوا عن التجديد والإصلاح في المجتمع السعودي قبيل توحيد المملكة وبعده، مستشهدين بكثير من نصوصه التي عكست روحه الإصلاحية.

بيد أن تلك الريادة لا تبدو مستقرة في كنهها وحقيقتها؛ إذ تحاصرها أسئلة متعددة، ينطلق جُلُّها من حقيقة هذه الريادة، وهل هي ريادة إصلاحية اجتماعية، أم هي ريادة أدبية إبداعية، فالعواد مصلح اجتماعي وأديب مبدع، وقد ترك لنا إرثاً كتابياً يؤكد هذا الأمر.

ويجيء هذا البحث محاولاً قراءة مفهوم الريادة الذي استحقه العواد، ومحاولاً أيضاً وضع ذلك المفهوم في سياقه الذي يراه صحيحاً، مستدعياً في سبيل ذلك حججاً وأدلةً من كتابات العواد نفسه، ومحاكماً بعض نصوصه وفق رؤية نقدية ذوقية، والبحث – في مبتدأ الأمر وفي منتهاه – يصدر عن رؤية الباحث، واجتهاده، وقدرته على استثمار الأدلة والأحداث والنصوص؛ ليصل من خلالها إلى ما يراه أقرب للحقيقة.

مقدمة

يعد الشاعر السعودي محمد حسن عواد أحد أهم الأسماء التنويرية في الذاكرة الاجتماعية والثقافية في المملكة العربية السعودية؛ فقد كان ظهوره وبزوغ نجمه الإصلاحي والإبداعي في مرحلة كان المجتمع فيها يحاول النهوض من كبوات عديدة رانت عليه فترة من الزمن، وكان العواد وقتذاك متفتحاً، وشغوفا بالعلم والمعرفة، ومن جهة أخرى كان محباً لمجتمعه، مشفقاً عليه، راغباً في إصلاحه وتنويره بكل ما أوتي من قدرة، فسخّر شعره ونثره لتحقيق هذه الغاية النبيلة، وأنفق الكثير من الجهد والوقت في سبيل تحقيق ذلك، وعانى كثيراً من المعارضات والاتهامات، لكنه ظل صامداً .

وحين يُذكر محمد حسن عواد تُذكر ريادته وتفرده بين أبناء زمنه، وقدرته الفريدة على الكتابة في سياقات إصلاح المجتمع والنهوض به، وهو الأمر الذي يراه القارئ في منجزات العواد بشكل جلي، سواء الشعرية منها أم النثرية .

ولم يكن غريباً أن يكون العواد اسماً ثابتاً، ورقماً صعباً في كتابات الذين رصدوا الحركة الأدبية والاجتماعية في المملكة، وفي كتابات الذين تحدثوا عن التجديد والإصلاح في المجتمع السعودي قبيل توحيد المملكة وبعده، مستشهدين بكثير من نصوصه التي عكست روحه الإصلاحية .

بيد أن تلك الريادة لا تبدو مستقرة في كنهها وحقيقتها؛ إذ تحاصرها أسئلة متعددة، ينطلق جُلُّها من حقيقة هذه الريادة، وهل هي ريادة إصلاحية اجتماعية، أم هي ريادة أدبية إبداعية، فالعواد مصلح اجتماعي وأديب مبدع، وقد ترك لنا إرثاً كتابياً يؤكد هذا الأمر .

ويجيء هذا البحث محاولاً قراءة مفهوم الريادة الذي استحقه العواد، ومحاولاً أيضاً وضع ذلك المفهوم في سياقه الذي يراه صحيحاً، مستدعياً في سبيل ذلك حججاً وأدلةً من كتابات العواد نفسه، ومحاكماً بعض نصوصه وفق رؤية نقدية ذوقية، والبحث - في مبتدأ الأمر وفي منتهاه - يصدر عن رؤية الباحث، واجتهاده، وقدرته على استثمار الأدلة والأحداث والنصوص؛ ليصل من خلالها إلى ما يراه أقرب للحقيقة .

إن التوغل الواعي في السيرتين؛ الإنسانية والإبداعية لمحمد حسن عواد (1324-1400هـ)، والقراءة الفاحصة في مجمل خطابه الثقافي، يمنحان الباحث شرعية الإجابة عن أسئلة تتعلق بحقيقة الريادة، وتحولات الكتابة الإبداعية في السياق الثقافي العام في المملكة العربية السعودية، منذ مبتدأ القرن الميلادي الماضي .

وحين يصطفي هذا البحث شخصية محمد حسن عواد؛ لتكون محوراً للحديث، وموضوعاً لتساؤلات عديدة تتعلق بالريادة ومفهومها وحقيقتها، فإنه يرتكز إلى أساس متين، قوامه التفرد الذي حققه العواد في حياته الثقافية والإبداعية؛ فأصبح مع الزمن مشروع حديث مستفيض، وبحث جاد ومعمّق، على أن الموقف من الشخصية الإنسانية - سواء أكان مُحتَفَياً بها أم مُتَحَفَّظاً عليها – لن يكون بالضرورة الموقف الفرد القاطع، ولا القول الذي لا معقّب له؛ ذلك أن الاختلاف حول قضية معرفية هو من سنن المعرفة، وأصل من أصولها الطبيعية، بل إن الاختلاف فيها يجلوها، ويزيدها قرباً لذهنية الباحث والقارئ، وكلما استطاع صاحب الرأي أن يدلّل ويبرهن على رأيه، كان أكثر إقناعاً، وأحرى بالقبول .

لقد كان محمد حسن عواد أحد أهم الأسماء المؤثرة والتنويرية في تاريخ المرحلة التي عايشها، بيد أن إثارة أسئلة الأهمية والتأثير ربما يلفت أنظار الباحثين إلى حقيقة الريادة التي اعتادوا على وصف العواد بها، وفي هذا السياق تحتشد أسئلة كثيرة، بيد أن أهمها وأقدرها على الكشف هو سؤال الريادة الذي ينبثق من محاولة فهم حقيقتها، ومن ثم محاولة وضعها في السياق الصحيح لها .

ومدار الأمر هنا ينطلق من فكرة الريادة نفسها، حيث تتداخل كثير من المفاهيم والتحليلات حينما يتعلق الأمر بمفهوم هذه الريادة وحقيقتها، إذ يكاد الذين درسوا العواد، وتناولوا منجزاته ومؤلفاته المختلفة أن يتفقوا على ريادته وتفرده، بالنظر إلى كثير من المنجزات والمبادرات الفكرية والإبداعية التي قدمها أو تبناها سواء أكان ذلك في مؤلفاته أم في مقالاته، ومراعين –في الوقت ذاته- السياقين التاريخي والاجتماعي اللذين عاش فيهما، لكن شيئاً من الاضطراب والتشويش – وربما الخلط – يعتري

تحليلاتهم حين يتعلق الأمر بتفسيرٍ دقيق وواضح وصريح لهذه الريادة، وتبرز بعض الأسئلة المثيرة للجدل والاختلاف، ولعل أهمها سؤال الريادة نفسه، الذي يتلخص في حقيقة هذه الريادة؛ أكانت فكرية تغييرية أكثر من كونها أدبية إبداعية؟ وهل كان العواد مصلحاً اجتماعياً أكثر من كونه أديباً مبدعاً؟ وأظن أن القراءة الفاحصة في منجزات العواد الإبداعية: الشعرية والنثرية، واستقراء السياقات التاريخية والاجتماعية والثقافية التي عاش فيها، ومقارنة منجزه بمنجز غيره من مجايليه، كفيل بأن يجلي الحقيقة، ويضعها في سياق علمي ومعرفي مقنع، ويمنحها شرعية كافية .

ومعلوم بالضرورة أن سائر النصوص والظواهر المعرفية لا تُقرأ قراءة نقدية صحيحة دون أن يكون القارئ ملماً ومحيطاً بسياقاتها المصاحبة لها؛ إذ لا يمكنه فهم كثير من الأبعاد والخفايا الساكنة في زوايا النص دون أن تكون السياقات الأخرى المصاحبة واضحة ومفهومة، فهي المنطلق الرئيس، والعتبة الأولى للتوغل في التفاصيل الداخلية، والأسرار النابضة في قلب النص، وانعدام الوعي بتلك السياقات يعد مجازفة قرائية خطيرة، قد تؤدي إلى نتائج خاطئة، وتحليلات بعيدة عن الدقة .

وإذا كان أمر معرفة السياقات ضرورياً جداً لفهم النصوص الإبداعية، فإن أهميته تتضاعف حينما يتعلق أمر القراءة بالظواهر المعرفية والإنسانية؛ ذلك أن تأثير السياقات المصاحبة يكون محورياً ومصيرياً؛ لشديد تعلقها وارتباطها بالظواهر والشخصيات بشكل مباشر، فهي تتحكم غالباً في كثير من التحولات والتغييرات، ويؤدي تجاهلها إلى نتائج مغلوطة وساذجة أحياناً؛ لأنها قد تتحول فجأة إلى عناصر رئيسة وداخلية في حركة الظاهرة وتطورها أو خفوتها .

ولأنني هنا أحاول الوقوف على حقيقة الريادة التي طالما وصف بها العواد، وأسعى إلى تفسيرها ووضعها في سياقها الذي أراه سليماً، فلا مناص من قراءة السياقات المصاحبة لحياة الرجل وحياة إبداعه ومنجزاته، منطلقاً في ذلك من الحقيقة التي قدمتها آنفاً، ومستعيناً بما كتبه العواد عن نفسه وحياته، وبما كتبه الآخرون عنه، كي أستطيع الخروج بنتائج معللة وقريبة من إقناع القارئ .

السياقات المصاحبة لحياة العواد

إذن، قبل أن يخوض هذا البحثُ في البحثِ عن تفسير مقنع لريادة العواد، وفي الإشكاليات المثارة حولها، يجدر به أن يقف وقفة تأمل عند السياقات الخارجية؛ التاريخية والسياسية والاجتماعية والثقافية التي أحاطت بالعواد، وبلورت حضوره وريادته؛ ذلك أن مثل هذا النوع من السياقات المصاحبة للذات الإنسانية في جهدها الثقافي والحضاري تكتسب أهمية كبرى، وتترك تأثيراً فاعلاً في تقييم المنجز، وفي فهم أبعاد الخطاب الفكري والإبداعي لتلك الذات، حينما تستثمر انعكاساتها المتوقعة عليها، بوصفها تتحرك في الأفق ذاته الذي تتغياه الذات الإنسانية المثقفة، وتتأثر بما يحيط به مما يطرأ أو يجدّ .

ومن السنن الكونية أن يتمازج التاريخي والاجتماعي بالسياسي الذي يمتلك دائماً حق الهيمنة على الزمن والمجتمع، بوصفه القادر على فرض نفوذه عليهما مهما تعددت الظروف والمؤثرات، والتاريخ يقول إن العواد عاش حياته في ظل عهود سياسية ثلاثة، تباين فيها كل شيء، بيد أنها تقاطعت عند نقطة واحدة، هي الارتباك وعدم الاستقرار :

1- أواخر العهد العثماني التركي في الحجاز (1326هـ / 1908م)

2- العهد الهاشمي "القصير" (1334هـ -1343هـ/1916- 1925م).

3- بدايات العهد السعودي(1343هـ-1351ه/1925-1932م) وما بعدها [1].

وبعيداً عن التوغل في أضابير الزمن السياسي لهذه العهود، فإن الملحوظ عليها أنها لم تنعم بالاستقرار والهدوء والأمن، إلا بعد فترة زمنية ليست بالقصيرة تلت توحيد الحجاز ونجد تحت اسم (المملكة العربية السعودية) في العام 1351هـ (الموافق 1932م)، أي بعد أن

(1) عبد الرحيم أبو بكر، الشعر الحديث في الحجاز، 13-14، الطبعة السلفية، القاهرة، (د. ت).

اقترب العواد من الثلاثين، كما أن ما سمي بالثورة العربية الكبرى[2] كانت في طفولة العواد، وهو الذي شبَّ متأثراً بها .

إننا نتحدث عن زمن قصير، بيد أنه مشبع بالتحولات السياسية، وبالرموز السياسية، وبالسقوط السياسي، ومثل هذه المظاهر كافلة لنمط من المناخات الخصبة للفوضى، الزاخرة بالتغيير والبحث الدؤوب عن نمط آخر، يحقق قيمة إنسانية أعلى وأجمل، وهو الأمر الذي أُلقي في روع العواد منذ أن بدأ يعي معنى الحياة، وكأنما أريد له أن يستثمر الظروف السيئة، ليصنع منها عالماً آخر تظل أسوأ مظاهره - بالضرورة - أفضل من عالمه الذي كان يعيش فيه.

ولعل أكثر المظاهر الحافزة على التغيير والثورة ضد النمطية، هي القمع السياسي والفكري الذي انتهجته السلطة الحاكمة في الحجاز في العشرين سنة الأولى من حياة العواد؛ حين كمَّمت الأفواه، وكبتت الحريات الفكرية والإبداعية على حد سواء، ابتداء من العهد العثماني الذي كان مظلماً، تسوده الفوقية التركية، والغياب شبه الكامل للعقل العربي تفكيراً وتحدثاً، ومروراً بالعهد الهاشمي الذي - وإن تحسن الوضع فيه نسبياً - ما زالت تحاصره "عقبات واجهت النهضة فحدَّت من نشاطها، وأهمها عداء السلطة الحاكمة للفكر والأدب"[3]، ولذا لم يكن مستغرباً أن تفشل المحاولات القليلة التي أرادت الانعتاق من رواسب السيطرة التركية على العقل العربي في منطقة الحجاز في تلك الفترة؛ نظراً لاستمرار الوصاية التركية عليه .

إن البيئتين الثقافية والفكرية في العهدين العثماني والهاشمي ساعدت بشكل مباشر على تفشي الجهل والأمية بين الناس، وأحبطت ظهور أي نوع من أنواع النشاط الثقافي أو الإبداعي، وأضعفت العقل العربي واللغة العربية بشكل يبدو ملحوظاً؛ "لأن هذه البيئة كانت محرومة من العوامل

---

(2) ويقصد بها العمل الذي قام به الشريف حسين ضد الدولة العثمانية سنة 1916م.

(انظر: أمين سعيد، ثورات العرب: 47، مطابع الشعب، القاهرة، د. ت).

(3) آمنة عقاد، محمد حسن عود شاعراً: دار المدني، جدة، ط1، 1985م.

القوية المساعدة على استئناف النهوض والتقدم، وإذاعة روحهما بين جيل هذا العهد بقوة"[4].

وعلى مستوى الوعي الجمعي لم يكن زمن العواد المشرئب بطبعه إلى التعلم والتفتح مغرياً أو مشجعاً؛ فالتعليم كان محدوداً ومقصوراً على الكتاتيب وحلقات المساجد، وموجهاً إلى حفظ القرآن الكريم وأبجديات الكتابة فقط، أما المدارس فقد كانت – مع بدايات العهد السعودي- قليلة لا تقدم إلا القليل، ولم تقدم شيئاً يذكر سوى أنها بدأت بتغيير لغة التعليم من التركية إلى العربية[5]، ومع إيماننا بعظيم هذا الأمر، إلا أنه لم يكن ليصنع عقولاً قادرة على ارتياد آفاق أبعد وأرحب، وهو الهاجس الذي كان يراود العواد في تلك الفترة المبكرة من حياته، ولذا فقد كانت صدمته الأولى بمجتمعه شديدة الوطأ عليه، وأوقدت في روحه ثورة التغيير وعدم الرضى، وصنعت منه فتى شغوفاً بالمعرفة، وباحثاً دؤوباً عنها .

ومع الدور الكبير الذي أدته مدرسة الفلاح في صياغة الخطوات الأولى لذهنية العواد من خلال دراسته وتدريسه فيها إلا "أن ما قدمته للعواد التلميذ سواء من ناحية المادة أو المنهج لم يكن كافياً لإرواء نهم الشاعر المتطلع دوماً إلى المزيد من الثقافة التي تُرضي نزعته المتأصلة إلى الإبداع والتجديد"[6].

وإذا كنا نتحدث عن توتر سياسي، فإن المجتمع – بالضرورة - ليس مستقراً؛ ذلك أن التحولات السياسية تؤثر فيه تأثيراً مباشراً، وقد كان المجتمع الحجازي في الحياة الأولى للعواد يفتقد إلى الاستقرار؛ لتتالي النخب السلطوية عليه في وقت وجيز، كما أن أفراد المجتمع – حينذاك- لم يكونوا ميالين إلى الجديد في شتى مجالات الحياة، وقد كان نصيبهم من التعليم- قبل العهد السعودي- شحيحاً، حتى إن بعض المصادر التي

(4) عبد الرحيم أبو بكر، الشعر الحديث في الحجاز،: 69.

(5) انظر: عبد الرحيم أبو بكر، الشعر الحديث في الحجاز: 48.

(6) آمنة عقاد، محمد حسن عواد شاعراً: 37.

تناولت حالة التعليم في العهد الهاشمي تجمع على حالة الجهل المطبقة في الحجاز[7].

وعلى المستوى الاجتماعي الخاص بالعواد نقرأ أنه عاش طفولته ومراهقته في دوامة من التحولات المزدوجة، فأسرته كانت غنية ثم افتقرت[8] ، وقد توفي والده ولما يكمل المرحلة الابتدائية، وتوفيت سبع من أخواته في حياته، وقد عانى من ضيق المعيشة في شبابه[9] ، وتحمَّل مسؤولية أسرته في سن مبكرة جداً، مع ما عرف عنه من حدة في الطبع، وأنفة في التعامل، وجميع هذه المؤثرات الشخصية لها دور فاعل في خلق الشعور بعدم الرضا، والإحساس بوجوب الثورة والتغيير .

لقد تواطأ السياقان التاريخي والاجتماعي لحياة محمد حسن عواد في تهيئة أجواء مثاليـة وملائمة لصناعة رائد قادر على حفر اسمه في ذاكرة التاريخ الإنساني في شبه الجزيرة العربية، بيد أن تلك الريادة كانت مشروطة بحضور ذهني من نوع خاص واستثنائي تهيأ للعواد ولم يتهيأ لغيره من مجايليه، ومن هنا يسوغ لي من حيث المبدأ أن أقول إن السر في ريادة العواد يعود مناصفة إلى قدراته الإنسانية وظروف عصره ومجتمعه .

إن مناخاً كهذا قد أسهم - ولو بشكل غير واعٍ - في تهيئة العواد؛ ليكون إنساناً مختلفاً وقادراً على اختراق السائد الاجتماعي في وقته، وَمَنَحَه الفرصة؛ ليكون حاضراً في متن التاريخ لا في هامشه، حين كان أكثر الناشئة الحجازية إقداماً وجرأة، وأكثرهم إنتاجاً يعكس ذلك الإقدام، ويمثّل تلك الجرأة، سواء أكان ذلك في منجزاته الشعرية أم النثرية .

وإذا آمنا بأن ردود الأفعال تكون عنيفة بقدر الأفعال نفسها، ساغ لنا أن نفسر تحول الظروف السيئة على المستوى السياسي والاجتماعي

---

(7) انظر: المرجع السابق: 12.

(8) تذكر آمنة عقاد نقلاً عن نجاة محمد حسن عواد أن جدها توفي إثر صدمة نفسية بعد أن فقد فجأة جميع ثروته. (انظر: المرجع السابق: 26).

(9) انظر: عبدالحميد شخص ومحمد سعيد باعشن، العواد قمة ومواقف: 43، دار الجيل للطباعة، مصر، 1980م.

والثقافي إلى مثيرات حفزت الشاب الصغير للتمرد عليها، وتجاوزها، والثورة على كل جامد فيها، ومن الواضح أن تلك الظروف أسهمت بشكل مباشر وفاعل في إشعال نار التغيير والتنوير في وجدان العواد وفكره، وبهذا تكون جزءاً رئيساً وعنصراً أصيلاً في صياغة مشروع العواد/ الرائد، ذلك المشروع الذي ظهر وتبلور ونضج بشكل لافت في المنجزات الإبداعية الفكرية التي كتبها الرجل في حياته الحافلة .

ولا يعني هذا إغفال القدرات الخاصة والمواهب الموقوتة التي منحها الله للعواد؛ فالرجل رزق طموحاً لا يحده حد، وجرأة لا يصمد أمامها خوف، ودأباً في التحصيل والقراءة لم يرزقه مثله أحد من مجايليه، وإذا كانت القدرات الفكرية والذهنية هبة من الله يمنحها من يشاء، ويمنعها من يشاء، فإن استثمارها وتوجيهها الوجهة المناسبة أمر يعود إلى الذات الإنسانية وقدراتها الخاصة، كما أن تنمية تلك القدرات وشحذها بالقراءة والاطلاع أمر يتفاوت فيه المفكرون بحسب هممهم ونشاطهم، ومحمد حسن عواد كان من أكثر مثقفي عصره شغفاً بالمعرفة الجديدة، والقراءات الحرة المتنوعة، ليس في مجال الأدب فقط – وقد كان مشغوفاً به- ولكن في شتى فروع العلم والمعرفة، وبخاصة كتب الفلسفة والتاريخ والسير، فقد قرأ أفلاطون، وأرسطو، وابن رشد، والفارابي، وابن سينا، ونيتشه، وكانت، وديكارت، كما قرأ في كتب علم النفس، وعلم الاجتماع، والتربية[10]، وذهب أبعد من ذلك حين اطَّلع على ما كتب في العلوم الطبيعية والتجريبية [11] .

وفي صباه كان العواد قارئاً بامتياز، وكان حريصاً بشكل واضح على اقتناء الكتب وقراءتها، مؤمناً أن القراءة هي القناة التي سيعبر من خلالها إلى عالم التأثير والتغيير، ولذا ثابر في الحصول على الكتاب، وأنفق كثيراً من الوقت والمال كي يقتني الكتب، وهو مازال فتياً في بدايات شبابه، في وقت كان معظم أبناء جيله غير قادرين على تحديد

(10) آمنة عقاد، محمد حسن عواد شاعراً: 40.

(11) انظر مثالاً على ذلك: محمد حسن عواد، ديوان العواد، (نحو كيان جديد): 106/1، 128، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ط1، 1978م.

أولوياتهم، أو القبض على حقيقة طموحهم، وحقيقة ماذا يريدون، وفي هذا السياق يقول العواد : " الكتب التي قرأتها في مطلع حياتي كثيرة، أذكر منها القصص والروايات [البوليسية]، وكتاب المستطرف، وإعلام الناس، وديوان المتنبي، والبهاء زهير، ونظرات المنفلوطي، ثم مجاني الأدب للأب لويس شيخو، ودرجات الإنشاء لنجيب حبيقة، ومنتخبات أديب إسحاق، وبعض معاجم اللغة، ورسائل البلغاء لمحمد كرد علي، وتاريخ ابن خلكان، ثم كتب العقاد، وسلامة موسى، والمازني، وطه حسين، والدكتور شبيل شميل، ولزوميات المعري، ودواوين ابن الرومي، والبحتري، وأبي تمام، وبشار، وأبي نواس، وغيرهم، ثم التجديد في الأدب الإنكليزي، وتاريخ أوربا، وإلياذة هوميروس، والكوميديا الإلهية (أو الملهاة المقدسة) لدانتي، ثم كتب الفلسفة، والمذاهب الفكرية والاجتماعية الخ"[12].

إن أسماء هذه الكتب وأولئك المؤلفين تعطي دلالة واضحة على عمق التفكير وسعته لدى العواد في صباه وشبابه، وهو بهذه القراءات كان يؤسس لنفسه وعياً قرائياً معمقاً، أعانه فيما بعد على فهم الحياة، واستثمار المعرفة، وكان وقوده الأساسي في ثورته التغييرية والتنويرية التي دعا إليها، ونادى بها في منجزاته التأليفية المختلفة .

والملحوظ في قراءات العواد الفكرية والفلسفية أنه لم يكن قارئاً مستهلكاً فقط، ولكنه كان حريصاً على تغذية نتاجه بكل ما يعنُّ له، أو يقف عنده من معلومات ومعارف جديدة، وإن نظرة عجلى في بعض منجزاته تؤكد هذا الكلام، فإنك سترى كثرة تهميشاته وإحالاته إلى آراء الفلاسفة والمفكرين، وتعليقاته عليها[13].

إن إنساناً يتوافر على كل هذه المقدرات، ثم يصطدم بواقع مظلم، لن نتوقع منه أن يستسلم ويسلم الراية، بل سيثور ويجاهد ويناضل باحثاً عن كوّة نور يطلُّ منها، وهو الأمر الذي أنفق العواد من أجله حياته منذ

---

(12) محمد حسن عواد، ديوان العواد (رؤى أبولون): 246/2، مطبعة دار العالم العربي، القاهرة، ط1، 1979م.

(13) انظر: المصدر السابق: 10/1، 11، 69.

خواطره المصرَّحة، ومروراً بكثير من المنجزات والمعارك، والنجاحات والخيبات التي أراد العواد من خلالها أن يؤسس لمجتمع بديل، يتكون في ظل تربية حديثة، ويعيش حياة منفتحة وعصرية.

إذن، فالنظر إلى مشروع العواد التنويري يجب أن ينطلق ابتداء من السياقات المحيطة به؛ سواء تلك التي سبقته/ المخاض، أم التي واكبته/ الواقع، وهنا يسوغ لي أن أقول: إن ثورة العواد جزء من ثورات كبيرة وكثيرة شهدها عصره، وهو واحد من الذين قال عنهم عبدالله عبدالجبار صاحب كتاب التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية: "كانت نفوس أولئك الأدباء قد اختزنت جميع المؤثرات الثورية، فمظاهر الثورة في الحجاز كانت مظاهر عميقة التأثير في نفوس الناشئة الحجازية إذ ذاك"[14] ، بيد أن العواد كان أنبغ هؤلاء، وأرفعهم صوتاً، وأقدرهم على ترك التأثير وصنع التغيير الواعي في الذهنية الجمعية لمجايليه، ولمن أتى بعده.

(14) عبدالله عبد الجبار، التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية: 143، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، 1959.

العواد : ريادة التفكير والتغيير

إن الحديث عن ريادة العواد لا يبدو جديداً، فهو أشبه بالحقيقة المسلمة لدى معظم دارسي الفكر والأدب في المملكة العربية السعودية، بيد أن الذي يعنينا هنا هو تعليل هذه الريادة وتفسيرها التفسير الأمثل؛ لتستقر في سياقها الصحيح .

إن جُلَّ الذين كتبوا عن العواد أو تناولوه في دراساتهم، كانوا ينظرون إليه رائداً أدبياً، ونابغاً ومُلْهَماً في الشعر والنثر، ومجدِّداً في طريقة التناول والرؤية الإبداعية في كتاباته الشعرية والنثرية، والقارئ في دراسات إبراهيم الفوزان وعبدالله الحامد، وآخرين نقلوا منهما، يلحظ هذا الأمر جلياً، فالفوزان في دراسته للأدب الحجازي يقول عن العواد: "وقد توفر له من عوامل الثقافة العربية واليونانية والغربية، ما أهَّله إلى تغيير مسيرة الأدب الحجازي، ونقل أحدث ما وصل إليه العالم من مناهج الأشكال الجديدة في الشعر وسائر أنواع الأدب"[15] . وفي سياق آخر قال عنه : "يعتبر بحق زعيم مرحلة الثورة التجديدية في الأدب الحجازي، أديب جريء عرفه الأدب الحجازي في نقده وعطائه، ثار على المنهج الاتباعي القديم في الشعر، ودعا واستعمل الشعر المرسل والحر والمنثور في الحجاز"[16].

والحامد يذكر أن العواد "زعيم المجددين سواء على بساط التطبيق الشعري، أم النظرية النقدية.." [17] ويراه "صاحب مذهب في الأدب؛ في الأسلوب والموسيقى والتجربة" [18].

وجُلّ الذين يتناولون المنجز الشعري للعواد يذهبون مباشرة إلى وصفه بالرائد، ويسبغون عليه صفة الريادة بوصفها حقاً مكتسباً له، ويبدو

---

(15) إبراهيم الفوزان، الأدب الحجازي الحديث بين التقليد والتجديد: 1338/3، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1401هـ.

(16) المرجع السابق 1310/3.

(17) عبدالله الحامد، الشعر الحديث في المملكة العربية السعودية خلال نصف قرن، 182-183، النادي الأدبي بالمدينة النبوية، ط1، 1408هـ.

(18) المرجع السابق: 184.

هذا واضحاً في كتابات الفوزان النقدية، فتحت عنوان (شعره وشاعريته) يقول عن العواد : " هو رائد هذا المجال من حيث الجودة والعمق واستعمال سائر أشكاله القديمة والجديدة على السواء، وقد نبغ فيه منذ صغره، تنوعت موضوعات شعره"[19] .

وفي السياق ذاته يصف محمد الشنطي العواد برائد التجديد في الشعر العربي السعودي المعاصر، ويراه أول شاعر سعودي التمس سبيل الخروج مما وصفه بقوقعة التقليد[20] .

وسواء أختلفنا أم اتفقنا على هذه الريادة حقيقة ومفهوماً، فهي –إن صحت ولست أراها دقيقة - ربما تمنح العواد جزءاً من حقه التاريخي والريادي[21]، لكنها تتجاهل حقاً أظنه أكثر أهمية، وأعمق أثراً في الحياة الحجازية آنذاك، وأحرى أن نحتفل بريادة العواد فيه، وأعني به الريادة الفكرية والتنويرية التي قادها العواد بشجاعة نادرة في فترة مبكرة جداً من عمره، ويظهر ذلك جلياً في كتابه الأثير (**خواطر مصرحة**) الذي ظهرت طبعته الأولى في عام 1345هـ[22]، وفيه يطرح العواد تصوراً إصلاحياً وتنويرياً شاملاً وعميقاً، مقارنة بالفترة التي صدر فيها الكتاب، والحالة الاجتماعية والثقافية وقتذاك، ويحاول من خلال ذلك الطرح أن يعيد صياغة المنظومة الاجتماعية والثقافية بشكل يتناسب مع تطلعات الشباب المتعلم والمتفتح ثقافياً وحضارياً، يقول : " التطور هو الدورة الدموية في جسم الحياة الطبيعية، وعلى أساسه تفتحت الحياة عن أروع معطياتها، بل من كل ما فيها من المعطيات، فالفكر إذا لم يتطور لا يستطيع أن ينتج،

---

(19) إبراهيم الفوزان، الأدب الحجازي الحديث بين التقليد والتجديد: 1316/3.

(20) انظر: محمد صالح الشنطي، التجربة الشعرية الحديثة في المملكة العربية السعودية: 149/1، النادي الأدبي بحائل، حائل، ط1، 1423هـ.

(21) سيأتي حديث مفصل عن حقيقة الريادة الإبداعية للعواد في قادم هذا البحث.

(22) انظر: عبد السلام طاهر الساسي، شعراء الحجاز في العصر الحديث: 31، النادي الأدبي بالطائف، الطائف، ط2، 1402هـ.

والشعور إذا لم يتطور لا يتمكن من ارتشاف جمال الحياة، والعمل إذا لم يتطور لا يصل إلى القمة .." [23].

إن هذه الكلمات ليست نصاً إبداعياً يستعرض فيه صاحبه مواهبه اللغوية والبيانية، ولكنه -بالنظر إلى وقت كتابته- نص حضاري تنويري يحاول فيه كاتبه أن يدفع مجتمعه نحو غدٍ يختلف عن حاضره، ولا تخفى الرغبة العارمة في التغيير والتطوير التي انطوى عليها هذا النص، وقد صدرت من شاب يريد لمجتمعه أن يتغير نحو الأفضل، وهذا يكشف لنا بجلاء وعياً مبكراً تلبّس بالعواد، وطموحاً إنسانياً متوقداً غشيه في حداثة سنه، وبحثاً دؤوباً عن إصلاح مجتمعه، وتغييره وتطويره نحو الأفضل، وقد استثمرها العواد بشكل حسن، حين سخّر وعيه وطموحه وقدرته في سبيل نهضة مجتمعه وتطويره .

وهو يرى عمل الأديب يقوم على ما يسميه بمطلب الإصلاح العام، ويشترط له صدق الدافع، وأحقية المطلب، واستطاعة التحقيق[24]، وفي هذا إشارة إلى رسالة الأدب التي يؤمن بها العواد، تلك الرسالة التي تحتفي بالتأثير والتغيير، ولا تعير اللغة وجمالياتها أهمية كبرى، بل إنه يرى أن " مقام اللغة وما عطف عليها مقام ثانوي في الأدب الحديث، بل إن من هذه المعطوفات ما ليس له قيمة في ميزان الفكر والفن، وإنما هي فضلات في جسم الأدب تضر بروحه، فتعيده كرة أخرى إلى ما كان عليه في عصر اللهو والانحلال"[25].

إن رجلاً يتحدث بهذا الطريقة، ويصدر عن هذه الرؤية، لا يبدو مجرد أديب يحتفي بالجمال والإبداع، أو يبحث عن استعراض لمهاراته البلاغية والبيانية في الكتابة، لكنه يظهر في صورة المصلح الباحث عن التغيير والتجديد الحضاريين، الملتفت إلى مجتمعه إصلاحاً وتغييراً، والطامح إلى صناعة غد أفضل لهذا المجتمع الذي ينتمي إليه، ويعيش فيه .

---

(23) محمد حسن عواد، أعمال العواد الكاملة (خواطر مصرحة): 192/1، دار الجيل، القاهرة، 1401هـ.

(24) انظر: المصدر السابق: 579/1 (من وحي الحياة العامة).

(25) المصدر السابق: 505/1 (من وحي الحياة العامة).

وللإنصاف، فقد كان كثير من الشباب الحجازي، منذ بداية الثورة الهاشمية مروراً بسقوطها، وانتهاءً بتولي الملك عبد العزيز مقاليد الحكم في الحجاز، كانوا إذ ذاك يتطلعون إلى التغيير والتجديد، ويستعدون حضارياً وثقافياً لحضوره الوشيك.

لقد أدرك الشباب الحجازي في غمرة ازدواجية شعوري البهجة والخيبة الذي أصابهم مع بداية الثورة الهاشمية ونهايتها، أدركوا أن الثورة التي يمكن لها أن تحقق انقلابات حضارية وإنسانية لا علاقة لها بالنظام السياسي، وأن صناعة المجتمع المثالي الذي حلموا به مع إرهاصات التغيير السياسي لا يتكون بلغة السلاح وتغيير الأنظمة الحاكمة، آمن أولئك الفتية بأن الثورة يجب أن تبدأ من المجتمع لتنتهي إليه، ولا يكون ذلك إلا من خلال بث الوعي والشعور بالمسؤولية، والإحساس بضرورة التغيير الواعي، وخلق نمطٍ من التفكير يتجاوز كل ما هو فردي ليشمله، ويضم إليه التفكير الجمعي في شتى مجالات الحياة.

في هذا السياق (النظري) الحالم والمتفتح لم يكن العواد نسيجاً وحده، بل شاركه عدد كبير من مثقفي الحجاز الشباب آنذاك، كما دلت على ذلك عبارة عبدالله عبدالجبار الآنفة، لكن أمر الريادة والتفرد انتهى إلى العواد وحده دون غيره من أولئك الشباب؛ لأنه تربع على عرش السياق (العملي)، وجاهر بما أجنته صدور القوم، وكان شجاعاً بالقدر الذي ضحى فيه بعمله ووقته وحياته دفاعاً عن مبدأ يؤمن به، وفكرة يعتنقها، وهو الأمر الذي تحاول الأوراق القادمة من هذا البحث الوقوف عنده، واختباره، والتأكد من مدى واقعيته .

خواطر مصرحة : شرارة التغيير وفاتحة الريادة

لقد كان كتاب العواد (خواطر مصرَّحة) الصادر – كما أشرت سابقا - في أوائل العام 1345هـ، العتبةَ الأولى للتغيير، وفاتحة الانقلاب والتحول، ومحاولة جادة وجريئة للتغيير الواعي في البنى الاجتماعية، والأنساق الفكرية والثقافية في عصر يدب دبيباً - وأحياناً يتوقف - في طريق النهضة، وإذا استطعنا أن نضع تاريخ صدور هذا الكتاب

(1345هـ) في سياقه الزمني والاجتماعي والثقافي الصحيح، بان لنا الأثر الكبير الذي تركته الخواطر المصرحة في إحداث فرق تجاوز الثقافي المجرد إلى الإنساني والحضاري في المجتمع الحجازي حينذاك .

لقد كتب العواد المقالات التي حواها الجزء الأول من كتابه خواطر مصرحة في العام 1344هـ وطبع الكتاب في أوائل العام الذي يليه (1345هـ[26])، وهذا التاريخ يحيلنا إلى نهايات العهد الهاشمي في الحجاز، وبدايات العهد السعودي، وهي فترة يسودها تخلف ثقافي وعلمي كبير؛ نظراً لسياسة الملك حسين، واعتداده بآرائه، وكرهه الشديد للتجديد، ورفضه تأسيس الشركات الأجنبية[27]، أضف إلى ذلك أن اللغة التركية مازالت أكثر حياة وحضوراً من العربية، فظل التعليم على حاله كما كان في العهد العثماني، وظل المجتمع الحجازي يعاني كثيراً في سياق التفتح والمعرفة، وسادت حالة من الجهل في الحجاز، وقد بدت مسارب النور ضئيلة جداً في تلك الفترة، ولم يكن منتظراً ولا متوقعاً أن يظهر صوت ينادي بالثورة والتغيير على المستوى المعرفي؛ نظراً لغياب الدافع، وضعف الإمكانات والقدرات للحجازيين في تلك الفترة، ومن هنا كان ظهور كتاب (خواطر مصرحة) يمثل نقلة مهمة، وتغييراً تجاوز السائد، وبعث كثيراً من الأسئلة والمثيرات، والعواد نفسه يقول عن هذا الكتاب " وكان أسلوبي فيه أسلوب المتعلم الثائر على منهج تعليمه عندما يدرك بعقله الباطن وبفطرته أن هذا المنهج وما يواكبه من مناهج أخرى إنما هي محاولات يصحبها الفشل في بعث الإنسان النائم في طبيعة الطفل ... وبعث الإنسان من أولئك الأطفال الماثلين بين أيدي من يتعهدونهم بالتربية والتعليم والتوجيه هو لب الرسالة التي يجب أن تحملها المدرسة، وتحملها الأسرة، ويحملها المجتمع، ولقد شعرت بمرارة عندما عرفت أن هذا الوسائل تمشي متباطئة في سبيل هذا البعث"[28] .

---

(26) انظر: محمد حسن عواد، أعمال العواد الكاملة: 10/1 (خواطر مصرحة).

(27) انظر: أحمد السباعي، تاريخ مكة دراسات في الصحافة والاجتماع والعمران: 234/2، دار قريش، مكة المكرمة، ط2، 1383هـ.

(28) محمد حسن عواد، أعمال العواد الكاملة: 10/1 (خواطر مصرحة).

إن هذا النص يختصر كثيراً من الرؤى التي أسهم الكتاب في تكريسها؛ ذلك أنه يعطي صورة واضحة للمؤلِف والمؤلَّف، فالأول طالبٌ مشرئب للمعرفة، لم ترضه الطريقة ولا المنهج، والثاني محاولة جادة لبعث العقول الناشئة، وتحريك جمودها بطريقة منهجية صحيحة، وهذه الرؤية تبدو غير مألوفة في السياق الزمني الذي كتبت فيه الخواطر المصرحة .

إن القارئ في خواطر مصرحة لا يشعر أبداً أنه يقرأ كتاباً أدبياً، ولا يهجس في ضميره أن صاحب هذا الكتاب معدود في الأدباء أو النقاد، بل يكاد القارئ أن يجزم بأن المؤلف رجل إصلاحي وتنويري، وأن هدفه الأسمى والأوضح هو إصلاح مجتمعه، ونقد كثير من أدوائه وعيوبه، ولا يمكن أن نحدس بأن من كتب الخواطر المصرحة هو ابن عشرين عاماً أو أقلّ، بالنظر إلى مضامين الكتاب ورؤاه، لا إلى لغته وأسلوبه .

ومحمد حسن عواد نفسه يصف كتابه بقوله : " فهذا كتاب جديد، هو عبارة عن قطعة مجسمة من بشريتي وشخصيتي، خلقتها نفسي من انفعالها بالحياة الإنسانية التي عبرت صورها المشهودة والمحجبة ... طرف من الفلسفة، وقبس من التاريخ، ومزيج من السياسة والعمران (الاجتماع) ولمحات من العواطف، وتيار من التفكير، هذا هو كتاب (خواطر مصرحة) بإيجاز"[29] .

إن هذا الوصف الدقيق للكتاب مع تذكر زمن صدوره، يسهل على الباحث تفسير ريادة العواد، ووضعها في سياقها الصحيح، فالريادة هنا ليست ريادة أدبية أو إبداعية، ولكنها ريادة الإصلاح والتنوير الاجتماعي، وهذا ما تدعمه النظرة العجلى في هذا الكتاب، والاختيار العشوائي لبعض المقالات فيه؛ ذلك أننا نجد العواد كان يحاول في كتابه الأثير أن "ينفث في قلوب الأمة روح الحياة والعزم والمجد، ويبعث في نفوسهم المستضعفة ميت الأمل والرجاء، ويخز مشاعرهم بسنان الحرية العالية

(29) المصدر السابق: 10/1، 11.

رغبة إيقاظهم من غفلتهم، واندفاعهم للجهاد الجليل في المعترك البشري العظيم"[30].

وتتضح هذه المحاولات بشكل ظاهر في موضوعات المقالات، ونَفَس العواد فيها، فهو حيناً يتحدث عن ما أسماه (الأمة المهملة) [31]، وهو وصف أطلقه أحدهم على الحجاز، فأثر في روح الشاب الغيور على بلده ومجتمعه، وكتب من وحي هذا الوصف مقالة مؤثرة، باح فيها بمكنوناته ولواعجه، حتى قال " (أمة مهملة) كلمة آلمتني وايم الحق، ولكنها على إيلامها هي الحق – وهي الحق كله – والحق مؤلم دائماً"[32] .

لقد حاول العواد في هذه المقالة أن يكشف كثيراً من أدواء المجتمع وعيوبه، ويحلل سبب الإهمال الذي ابتدأ به المقالة، ثم اقترح حلولاً بناءة ومنطقية لبعث جديد، وحياة اقتصادية واجتماعية أفضل في الحجاز، وختم مقالته بعبارة عميقة ورزينة، تعكس غيرته الصادقة، ونظرته البعيدة : "إن تقدم الشعب الحجازي يتحقق إذا توفر فيه الرجال المفكرون الذين هو أحوج إليهم من الرجال الماليين الإقطاعيين، وتضافر على العمل لرفعه بإخلاص كلٌّ من الفتى والفتاة، وهناك تكون الحياة العملية التعاونية على أتمها"[33] .

إن هذا النَّفَسَ الإصلاحي التوجيهي الطافح في المقالة يعكس الهاجس الذي كان يسكن روح العواد ووجدانه، فالرجل كان صادقاً غيوراً مشفقاً في تعاطيه مع مجتمعه الحجازي، وإذا تذكرنا أن مثل هذه المقالة كتبها العواد وهو لما يبلغ العشرين بعد، استطعنا أن نفهم وأن نفسر فكرة الريادة التي وصف بها العواد .

وفي مقالة أخرى يخترق محمد حسن عواد السائد، ويوجه خطاباً مباشراً إلى الفتاة الحجازية، ويبعث إليها رسالة فيها الكثير من الغيرة

---

(30) المصدر السابق: 28/1. (من مقدمة عبد الوهاب آشي لكتاب خواطر مصرحة).

(31) انظر: المصدر السابق: 48/1.

(32) المصدر السابق نفسه.

(33) المصدر السابق: 53/1.

على حاضرها وقادمها، ويحاول أن يحثها على مكارم الأخلاق، ويرسم لها منهج حياة جديدة : " سأتحدث إليك كيف تكونين، وكيف تكونين أفكاراً وأدباً، كيف تكونين علماً وأخلاقاً، كيف تكونين عيشة وعادات"[34] ، ثم يسترسل مفصلاً هذه التوجيهات بروح المصلح الغيور على بنات وطنه، لينتهي إلى تذكير الفتاة الحجازية برموز نسائية عبر التاريخ الإسلامي المجيد : "سلي تاريخ بلادك عمن نبغن واشتهرن من الآنسات والسيدات، سلي تاريخ العرب أمتك عمن كن فيها من فضليات النساء اللاتي كنّ أعلاماً لبنات جنسهن، وللرجال أيضاً، سلي تاريخ الحجاز؛ بلادك ووطنك الخاص عن أولئك وهؤلاء، وكثير غيرهن"[35] وهو هنا يقدم الأنموذج والقدوة للفتاة، مستشهداً برموز نسائية عالية، كأم المؤمنين خديجة بنت خويلد، و فاطمة الزهراء ابنة نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم، وذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر رضي عنهن، وغيرهن من اللواتي رسخت أسماؤهن في التاريخ[36] .

ويختم العواد مقالته بخلاصة التوجيه والنصح للفتاة الحجازية، ويحثها على الإبداع والنبوغ، ويرغّبها في صناعة مستقبلها بشكل يضمن لها الحياة الأجمل والأفضل، ويحذرها من التقليد والجمود : " خذي نصيبك الواجب من التربية والتهذيب والتعلم والاطلاع والوطنية والشعور، وترسمي خطوات هؤلاء ولا أقول لك اسبقي، وانبغي، وترجمي، وحاضري، ولكن فكري، واكتبي، واقرئي، واستعدي، وتعلمي، ودعي التقليد، فأمامك مستقبل منير حافل بما حملته إلى الشرق وإلى الغرب، وستحمله مدنية القرن العشرين، ومعارف القرن العشرين، وأفكار القرن العشرين، ورقي القرن العشرين، ودعي التقليد الفردي البليد، واسحقي الكسل الوراثي التليد، وحطمي قيوداً كنت ترسفين بها من أمد بعيد"[37].

---

(34) المصدر السابق: 54/1.

(35) المصدر السابق: 55/1، 56.

(36) انظر: المصدر السابق: 56.

(37) المصدر السابق نفسه.

لقد كان خطاب العواد التنويري موجهاً إلى المجتمع بعامة، وليس إلى النخب المثقفة فقط، وكانت ثورته التغييرية منصبة على تحريك الجمود وتغيير السائد/ الخطأ، في المجتمع بأسره، وما موقفه السابق من المرأة ومن المجتمع، وشنَّهِ هجوماً قاسياً على عادات اجتماعية كثيرة إلا شواهد ناطقة على ما قدَّمناه.

والمتأمل في خواطر العواد المصرحة يرى بجلاء شخصية المثقف الثائر الذي لا يرضى بالواقع، ويشرئب إلى قادم مختلف، فهو ينتقد الواقع بحدة، ويحاصر المجتمع وأفراده معلناً مظاهر التخلف التي يعيشون فيها، ولا يستثني في نقده الحاد أحداً، فالنخب الدينية والسياسية تدخل في هذا النقد، وكأنه مؤمن بتأثيرها الشديد في المجتمعات التقليدية المحافظة، ولذا توجه إليها ناقداً وناصحاً، ومهاجماً أحياناً[38].

"إن النظر إلى كتاب خواطر مصرَّحة -في مجمله- يكشف لنا أن العواد لم يكن يبحث عن استبدال شعر بشعر، وأسلوب في الكتابة بأسلوب آخر، وإنما كان يبحث عن مجتمع بديل؛ مجتمع يتأسس على تربية حديثة، وينتهي إلى حياة عصرية متميزة"[39]، ولن يتأتى هذا النظر إلا من خلال مراعاة السياقات التاريخية والاجتماعية والثقافية التي صاحبته، وأحاطت به؛ وهو أمر يسهّل علينا كثيراً تفسير هذه الخطوة الجريئة والثورة الفكرية التي كانت ردة فعل طبيعية لفشل الثورة العسكرية/ السياسية في الحجاز كما مر آنفاً .

وإذا تجاوزنا كتاب العواد (خواطر مصرحة) إلى منجزاته الأخرى، الشعرية منها والنثرية، فإننا سنجد أن قلق الإصلاح، ورغبة التنوير هي الهاجس المسيطر على كتابات الرجل وفكره، والمتأمل في سائر الخطاب الثقافي للعواد يلحظ حرصه الشديد على الدعوة إلى بعث النفوس والعقول من جمودها إلى نمط من الحياة الفاعلة التي من شأنها أن تعمق قيمة التجديد والتغيير؛ فرسالة الفن لدى العواد هي: "تعميق الحياة،

---

(38) انظر – مثلاً – مقالته: في آذان المتمرئسين (أعمال العواد الكاملة "خواطر مصرحة": 67/1.

(39) سعيد السريحي، الشعر باعتباره إحالة (دورية علامات: 746/52، النادي الأدبي الثقافي بجدة، يونيو 2004م).

وإنماء ثروتها في النفوس، والصعود بالآدمية إلى أفق سامٍ من آفاق الخلود"[40].

والعواد يكرس هذه الحقيقة في كتاباته النثرية بشكل واضح، سواء أكان ذلك في خواطره المصرحة، أم في كتبه اللاحقة، كـ(تأملات في الأدب والحياة) [41] و(من وحي الحياة العامة) [42] و (محرر الرقيق) [43]، فهو في هذه المنجزات كلها يحاول أن يصل بالقارئ إلى حقيقة الإنسان ودوره في الحياة، فالإنسان "هو الكائن الراقي الذي يقوم بأهم دور يمثله كائن في الحياة، وهو الموضوع الجدير بالعناية والدرس إذا تصدى الدراسون لفحص عناصر الأحياء، وهو الحي الذي يسطو بقوة الحيوية فيه على ما يحيط به من أشكال المواليد الطبيعية"[44]، ويقرر في سياق آخر رسالة الأديب ودوره، ويرى أن ذلك الدور يتمحور حول مطلب الإصلاح العام بطريقة محببة، ويؤكد أن كل صلاح يرجى نجاحه لا بد له من أحقية طلب، وحاجة ماسة إليه، ومطابقة للواقع الذي يعيش فيه[45]، ويرى ما يراه العقاد من أن الشعر قيمة إنسانية قبل أن يكون قيمة لفظية أو صناعية، فيحتفظ الشعر بقيمته إذا ترجم لأي لغة أخرى[46].

---

(40) محمد حسن عواد، ديوانه (مقدمة آماس وأطلاس): 12/1.

(41) مقالات وبحوث متفرقة كتبت بين عامي 1351هـ و 1355هـ، وطبع في القاهرة عام 1369هـ ثم طبع ضمن الأعمال الكاملة عام 1401هـ.

(42) مقالات وأحاديث أذيعت من إذاعة البرنامج الثاني بجدة، وطبع ضمن الأعمال الكاملة للعواد عام 1401هـ.

(43) دراسة تحليلية لشخصية الخليفة الأموي سليمان بن عبدالملك، طبعه النادي الأدبي الثقافي بجدة في العام 1396هـ.

(44) محمد حسن عواد أعمال العواد الكاملة: 285/1 (تأملات في الأدب والحياة).

(45) انظر: المصدر السابق: 579/1. (من وحي الحياة العامة).

(46) انظر: محمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف، الرؤيا الإبداعية في شعر العواد: 184، شركة الخازندار للتوزيع، جدة، ط1، د.ت.

ولم يكن الشعر عند العواد بعيداً في وعيه وعمقه الحضاري عن النثر، فالشاعر والناثر فيه مسكونان بقلق التجديد، ومهمومان بالبعث والإصلاح، وغيوران غيرة واضحة على المجتمع وأفراده، وكما وظف العواد نثره في خدمة مجتمعه وحثِّه على الرقي والنهوض، فقد وظف شعره كذلك، وهو أمر لافت للنظر، ومستحق للوقوف؛ ذلك أنه يندر أن تجد شاعراً في تلك الفترة مهموماً بالإصلاح والتنوير في شعره، ومعظم المنجزات الشعرية في وقت العواد إلى يومنا هذا تأخذ مسلكاً إبداعياً واضحاً، وتتراوح الرؤية الشعرية فيها بين الذاتية المفرطة، والتهويم الوجداني، والعناية بالجماليات، وقلما تجد شاعراً يكرس جزءاً من منجزه الشعري للدعوة إلى التغيير والتجديد على مستوى المجتمع وشرائحه المختلفة، وهو ما فعله العواد في كثير من نصوصه وتجاربه الشعرية، وإن لم يتخلّ تخلياً كاملاً عن ذاتيته في شعره، لكنه وظف الشعر في خدمة الفكرة الإصلاحية التي آمن بها منذ وقت مبكر من حياته، فالقلم – مثلاً- تحوَّل في شعره من وظيفته المجردة إلى سلاح ثوري فاعل بيد (الشباب)، الذين خلقوا لكي يثوروا، ويرفضوا التقليد والجمود، ويبحثوا عن الانعتاق والتحرر :

واللهِ مـــا خُلـــقَ اليَـــرا ... عُ لأنْ يعيـــــشَ مُحيَّـــــرا
لا بُـــدَّ للبركـــانِ يَـــوْ ... مَـــاً أن يُـــرى مُتفَجِّـــرا
لِـــمَ لا تثـــورُ ؟ وإنمـــا ... خُلِـــقَ الشبـــابُ لأنْ يثـــورْ
خُلِـــقَ الشـــبابُ بطبعـــهِ ... يـأبـــى مُسايـــرةَ الدّثـــورْ[47]

والثورة التي يتحدث عنها العواد هنا ليست خطابياً أدبياً مجرداً ضد التقليد والجمود، ولكنها خطاب حضاري وثقافي عام، هدفه الاستنهاض وبعث العقول، والأمر ذاته ينطبق على دعوته إلى الاطلاع على نصوص الأدب (الحي) لبعض مبدعي مصر والشام والمهاجر والغرب، فهي ليست مجرد إحالات إلى نماذج عالية ورفيعة من الأدب، وإنما هي

---

(47) محمد حسن عواد، ديوانه (آماس وأطلاس) : 27/1,

إحالات إلى سياقات اجتماعية واقتصادية وثقافية، تمثلت في تلك الكتابات وفي أصحابها[48].

وهو يؤمن أن القطع الشعرية قيمتها ليست في نصاعة البيان، وإنما بما تتضمنه من أفكار[49]، والأهم من هذا يتمحور حول رؤيته لرسالة الشعر وطبيعة حضوره ودوره في العصر الحديث؛ إذ يربطه بالفكر، ويشترط لجودته أن يكون متسقاً ومناسباً للحياة الجديدة، وأفكارها المستحدثة، ويقول عن الشعراء – وهو واحد منهم – " إذا لم نستطع أن نأتي بفكر جديد – ولدينا من الأفكار والمقاصد والأغراض الشعرية ما يكمم أفواهنا عجزاً وقصوراً عن استيعابه – فأحر بنا أن نحطم اقلامنا ونسكت، أمامنا الوطن بحاجاته المادية والمعنوية، وما يتطلبه الشعر فيها، أمامنا العادات والأخلاق، بما فيها من فساد يتطلب النقد، أمامنا الحرية بأنواعها، وما يجب من تمكينها في النفوس، أمامنا الشرق الكسول الخامل وما يجب من تنشيطه، أمامنا الطبيعة بظاهرها وباطنها ووحيها للعقل والقلب، أمامنا العرب بحالتهم السياسية وواجب الشعر في هذا المجال، أمامنا الغرب باختراعاته ومدهشاته وأعماله وما يتطلبه المقام في ذلك من تمثيله والحث على منافسته، أمامنا الحياة كلها بما فيها من خير وشر. إذن : فما لنا نرجع إلى الوراء حتى في الأدب، والأدب هو أول الطريق ؟"[50] .

لقد كان الإبداع الأدبي عند العواد وسيلة إلى غاية أسمى وأعلى، فقد نذر شعره ونثره للرقي بمجتمعه، وبأفراد ذلك المجتمع، وكانت مفردة (الوطن) محوراً قطبياً في رؤاه الإبداعية التي ضمنها شعره ونثره، وقصيدته (جنون الناقدين) شاهد مثالي على ما نطرحه هنا؛ فهي تصف الحركة التجديدية التي يتزعمها، وفيها إحساس عظيم بالمسؤولية، واستشعار لأهمية بث الحياة في قلب هذا الوطن ليتنفس هواءً جديداً :

---

(48) انظر: سعيد السريحي، الشعر باعتباره إحالة (علامات: 751/52).

(49) انظر: محمد حسن عواد، أعمال المواد الكاملة: 61/1 (خواطر مصرحة).

(50) المصدر السابق: 61/1، 62.

العقـــلُ فـــوق الحـــسِّ إنـــّـ ـــــكَ قلـــت ذاكَ فأيـــنَ ذاك؟
دعنـــي ..وقـــمْ بالواجـــبِ الــ ـــــوطنيّ وابتـــــدرِ العِـــــراك

أرســـــلْ خـــــواطرك الصريــــ ـحـةَ واخـترقْ حُجَـبَ السُّـكوت
وادعُ الــــــبلادَ إلى الحيـــــا ةِ فهــل يروقـــكَ أن تمـــوت؟

وأَهِـــــــبْ بهــــــا ألا تَهُـــــــون
ربَّاه كـــــــم لبثـــــــتْ تَهُـــــــون

وطـــني .. أجـــهلٌ أم غـــبا ءٌ أم سُـــباتٌ .. مـــا عَـــراك ؟!
تجـــــري الحـــــوادثُ في رُبا كَ وأنـــتَ كالجســـدِ الطَّـــريح
ويقـــــــودكَ المتأخِّـــــــرو نَ .. وكالمـــكَمَّمِ لا تصيـــح

اركـــــــنْ إلـــــــى المُتنوِّريـــــــن
فــــــــالخيرُ في المتنــــــــوِّرين

ودِّعْ حيـــــــاةَ السَّادريـــــــ ــــنَ فإنهـــا فَصَـــمَتْ عُـــرَاك
واستقبــــلِ العهـــدَ الجديــــ ـــــدَ فإنّـــــه يُعلـــــي ذراك

عهـــــدَ الحقـــائقِ والتــــآ زرِ بعـــدَ تفكـــيرٍ صحيـــح
عهـــداً تحـــوكُ خيوطَـــه حريـــةُ الفكـــرِ الصريـــح

يَـــــــغْنُو لـــــــــه المِتَعَنتِـــــــــون
وَهَشِـــــــــيمُهُ الـمُتَعنتُـــــــــون[51]

إن هذه الرؤى الشعرية الهادرة والثائرة تعكس رغبة محمومة تشتعل بها روح العواد في إصلاح حال وطنه ومجتمعه، والخطاب الشعري هنا صريح وواضح، لا يحتفي بالجمال، ولا يراهن على اللغة، لكنها الثورة على الجمود والتخلف والتأخر والتعنُّت، وهي صفات ومساوئ كان الشاب الصغير مختنقاً بها منذ أن وعى معنى الحياة.

والعواد نفسه حين يتحدث عن منجزاته التي ضمنها خطابه الإنساني والثقافي لا يتحدث عن قيمة أدبية أو نقدية لتلك المنجزات، وإنما يراها: "سجلت نواحي من جهادي في حرية الفكر والثورة على القديم"[52] .

إن الحاجة ملحّة إلى أن نعيد قراءة خطاب العواد بعد مراعاة سلكه في سياقاته التاريخية والاجتماعية والسياسية والثقافية، ويجدر أن تكون زاوية الرؤية إلى ذلك الخطاب نابعة من خلال الفكر الإصلاحي الجمعي المؤسس على ركائز معرفية، لا من خلال الخطاب الأدبي المجرد .

العواد ودعوى الريادة الشعرية

ما زال النقاد - قديمهم وحديثهم- يختلفون في مفهوم الشعر وحدِّه، وربما كان الاختلاف نابعاً من اختلافهم في تصور الغاية من الشعر، والهدف منه، والرسالة التي يجب أن يؤديها، وهنا تتداخل مفاهيم متصادمة، كالالتزام، والجمالية، والفنية المجردة، وغير ذلك .

وليس هذا البحث معنياً بالخلاف حول المفهوم، وإنما قدمتُ به لألج إلى عالم (الشاعر) محمد حسن عواد، الذي حاول في منجزه الشعري الذي بين أيدينا المزاوجة بين الشعر بوصفه رسالة ووسيلة، والشعر

(51) محمد حسن عواد، ديوانه: 1/27-29 (آماس وأطلاس).

(52) المصدر السابق: 1/6 (نحو كيان جديد).

بوصفه فنّاً وغاية، وقد كانت محاولاته جادة ومخلصة، بيد أن نوعاً من الفشل اعتراها؛ إذ لم يستطع العواد في كثير من منجزاته الشعرية أن يلبي مطالب الشعر الجمالية، كما استطاع بجدارة أن يلبي مطالبه الرؤيوية الهادفة .

لقد ترك لنا العواد إرثاً شعرياً كثيراً، ضمنه دواوين متعددة ومتباينة في رؤاها، وفي زمن صدورها، وفي حجمها وتعداد نصوصها، بيد أن السمة المشتركة التي تكاد تسيطر على جل ما أنتج، قديمه وحديثه، أنها ابتعدت إجمالاً عن روح الشعر، وافتقرت إلى جمالياته، فجفّت رواؤها، شحّ ماؤها، وتحولت – غالباً - إلى رؤى معقلنة بوزنٍ وقافية أحياناً، ودونهما أحياناً أخرى، مع تفاوت في نسب هذا الابتعاد من قصيدة إلى أخرى .

إن القارئ في شعر محمد حسن عواد يلحظ ظاهرة فنية تنتظم جلّ منجزه الشعري، وتبدو واضحة ومتغلغلة في قصائده، وهي ما يمكن أن أصفها بالمباشرة والوضوح، أو كما أطلق عليها أحد النقاد (الوصف الفوتغرافي) [53]، حيث كان العواد يؤمن برسالة الشعر أكثر من إيمانه بجمالياته، وكان واقعياً مسكوناً بالإصلاح، ومهموماً بالتغيير، أكثر من كونه مسكوناً بالجمال والإدهاش، وهذا الأمر " قلل من المستوى الفني للتجربة الشعرية عنده، إضافة إلى أنه كثيراً ما يصدر في شعره عن وعي عقلي يحلل، ويستقصي، ويستنتج، مما يرهق قصيدته بالتأملات والتساؤلات والتسويغ المنطقي، كما أن العواد كان قليل الصبر في صنعته، ولا يتأنى في انتقاء لغته"[54] .

وقد فطن لهذا الأمر بعض من درس الأدب في المملكة دراسة موسعة، لكنهم تفاوتوا في طريقة عرضه والإشارة إليه، وفي طريقة التعليق عليه، فعبدالله الحامد يرى أن العواد لم يكن شاعراً كبيراً[55]،

---

(53) الوصف لعبدالله المعقيل، انظر: قاموس الأدب والأدباء في المملكة العربية السعودية 1207/2، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ط1، 1435هـ.

(54) المرجع السابق: 1207/2.

(55) انظر: عبدالله الحامد، الشعر الحديث في المملكة: 184.

وإبراهيم الفوزان رآه فاقداً للأسلوب السلس الذي يواكب أفكاره العميقة[56]، وعبدالله عبدالجبار يحكم على شعره بأنه خلو من العاطفة والإحساس إلا في القليل النادر[57]، ويذهب عبد الجبار أبعد من هذا حين يصم شعر العواد بفقدان وهج الشعر وجمال الموسيقا[58]، لكن أحداً منهم لم يحاول أن يفصل ويعلل لهذا الارتباك في التجربة الشعرية لدى العواد، كما لم يحاولوا التفريق بين ريادته الفكرية التغييرية - وهي من مكتسباته الذاتية - وبين قيمة منجزه الشعري من حيث الجودة والإتقان .

إن التفسير الأكثر منطقية – في نظري – لضعف المنجز الشعري إجمالاً لدى العواد يعود إلى وعيه الخاص برسالة الشعر، وإيمانه المطلق بهذه الرسالة، واشتغاله عليها بشكل لافت، فهو يرى أن الشعر الحي هو الذي "يتفاعل والعصر الذي نعيش فيه، ويحمل أقدس رسالاته، وهي الحرية الفردية، واشتراك الإنسان في الحقوق والواجبات الجماعية، والسيادة على الرجعية، والاعتزاز الفردي بمواهب الفرد، وإخضاع هذه المواهب لخدمة الشعب، وتفتيح وعيه، وقيادته إلى مستوى عالٍ، لمعرفة حظه في تقرير حياته ومصائره، على آخر هذه المُـثُـل التي ينادي بها القلم الحر، والفكر الحر، والقلب الحر، وحاجة الإنسان الحديث –فرداً وجماعة- ومطالب الحياة الكريمة التي توحي بالارتقاء"[59].

إن هذا النص يدل دلالة صريحة على مفهوم الشعر ورسالته لدى العواد، فهو لم يتحدث ولم يشر إلى الجماليات أبداً، وكأنها شيء لا يعنيه، ولا يعني شعره، وإيمانه المطلق يتمحور حول الرؤية الشعرية وقدرتها على بعث الإنسان وتكريس حريته الفردية، والمراهنة على دورها في خدمة الشعوب، ومساعدتها على تقرير مصائرها، بل إنه يذهب أبعد من هذا حين يصرح في تتمة كلامه السابق بأنه "لا فرق بعد هذا في شكل الشعر عندي وعند من أدركوا هذه الحقائق من زملائي، لا فرق عندنا في

---

(56) انظر: إبراهيم الفوزان، الأدب الحجازي الحديث: 138/3.

(57) انظر: عبدالله عبد الجبار، التيارات الأدبية: 292.

(58) انظر: المرجع السابق نفسه.

(59) محمد حسن عواد، ديوان العواد: 66/2 (مقدمة ديوانه: في الأفق الملتهب).

أن ينظم الشعر على الطريقة القديمة، أو على الطريقة الحديثة الممثلة في الشعر الحر، والشعر المطلق أو المرسل، والشعر المنثور، ولا أن يكون أسلوب الأداء رمزياً أو صريحاً، فالمهم هو روح الشعر وحيويته"[60]، وهذا التصريح من العواد مصداق لكلامي السابق، ودليل قاطع عليه، فهو شاعر رؤية ورسالة، ولا يأبه كثيراً بالترميز أو التصريح، ومن هنا لم يكن من الغريب أن يرتبك أداؤه الشعري، ويبدو عليه الضعف والوهن .

وفي فهمه للشعر وموضوعه ووظيفته، نلحظ أن العواد يؤمن بضرورة التمازج بين العلم والفلسفة والشعر معاً، ويقرر بأن على الشعر أن يتحد مع الفلسفة، فيكون شعر المرحلة الحديثة فلسفياً عميقاً وجذاباً، ويرى أن من متطلبات الثقافة الجديدة وجود شعر يتناسب معهما على ألا يفقد الشعر بهاءه ورونقه[61]، أي أنه يريد أن يلم الشاعر بالعلوم ثم يصوغها شعراً جميلاً على المستوى الفني، وهذا أمر حسن، لكن العواد لم يستطع الوفاء به في معظم منجزه الشعري الذي طغى فيه العلم، واستبدت الفلسفة، وتوارى الفن .

ومن الواضح الأثر السلبي - من الناحية الفنية - الذي تركته مدرسة الديوان في شعر العواد، وقد كان متأثراً بها، وبقطبها العقاد على وجه الخصوص، ومن البدهيات أن الديوانيين احتفوا كثيراً بالنزعة الفكرية التأملية في الشعر حتى أنكر العقاد وجود شاعر عظيم هو "خلو من الفكر الفلسفي"[62]، وقد أعجب العواد بمثل هذه الأفكار وتبناها في منجزه الإبداعي، حتى جاء شعره "لتأكيد تأثير مدرسة الديوان في الشعر السعودي المعاصر، وممثلاً بشعره كل خصائص شعر العقاد،

وبخاصة طغيان الفكرة على الأسلوب"[63].

---

(60) المصدر السابق نفسه.

(61) انظر: محمد حسن عواد، أعمال العواد الكاملة: 298/1 (تأملات في الأدب والحياة).

(62) محمد خليفة التونسي، فصول من النقد عند العقاد: 68، نهضة مصر، القاهرة (د. ت).

(63) حسن الهويمل، النزعة الإسلامية في الشعر السعودي: 467، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة على تأسيس المملكة، الرياض، ط1، 1419هـ.

وهنا يسوغ لنا أن نعلِّل آراء النقاد السابقة في شعر العواد، واتهامهم إياه بفقدان روح الشعر والأسلوب الفني السلس، يسوغ لنا أن نعلله بشغف العواد بعقلنة الرؤى والإلحاح على فلسفة الفكرة، واتكائه على العقل والمنطق في سياق إبراز الرؤيـة الشعرية، إضافة إلى نزعته الفكرية والتأملية المنبثقة من تأثير العقاد فيه، وهي كلها عوامل تضافرت وأسهمت في إضعاف فنية القصيدة عند العواد، وحولت تجربته الشعرية من تجربة جمالية إلى تجربة عقلية فلسفية، قد تكون عميقة، لكنها غالباً بعيدة عن الجمال، وماء الشعر فيها ناضب .

وإذا تجاوزنا عن ديوانيه الأول والثاني (**آماس وأطلاس**) الصادر في عام 1953م، و(**البراعم**) الصادر في عام 1954م، بوصفهما يمثلان شعر البدايات، وقد اعترف العواد نفسه بكثرة العثرات والكبوات فيهما[64]؛ إذا ضربنا صفحاً عن هذين الديوانين، واستقرأنا دواوينه الأخرى منذ ملحمة (**الساحر العظيم**) الصادر 1953م، مروراً بـديوانه (**في الأفق الملتهب**) الصادر في عام 1954م، وديوانيه (**نحو كيان جديد**) و (**رؤى أبولون**) وقد صدرا في العام 1955م، وانتهاءً بـديوانه (**قمم الأولمب**) الصادر في العام 1976م[65]، سنلحظ أن كثيراً من نصوص هذه الدواوين طغت عليها روح المباشرة، وأثّرت فيها النثرية والتصنع، فأبعدت لغتها عن فنية الشعر، وأحالتها كروح سامية في جسد مترهل، ولنا أن نستشهد بمثل قوله :

قـالَ فـانثرْ كِنانـةَ العلـمِ إنْ شئـ ـــتَ أمـــامي و زادكَ اللهُ رُشْـــدا
قـال فـاسمعْ عناصـرُ الكـونِ كـالأر كـــانِ للهيكـــلِ المربـــعِ عَـــدّا
فهـي المـاءُ والهـواءُ وهـذي النـــ ـــــارُ والـتّربُ ذاك لـن تَتَعَـدّى

(64) انظر: محمد حسن عواد، ديوانه: 10/1 (مقدمة آماس وأطلاس).

(65) اعتمدت في تحديد تاريخ صدور الدواوين على قاموس الأدب والأدباء في المملكة العربية السعودية: 1208/2.

هــنَّ كـلُ الأســاسِ في لبنــاتِ الْـــ كـــونِ مـــا إنْ قـــبلنَ نقصـــاً وزَيْـــدا
كـــلُّ مـــا تبصـــرُ العيـــونُ فمنهـــا أصـــلُهُ قـــائمُ ومـــا عنـــه مَعْـــدى[66]

أو مثل قوله :

وهـــــذه ذاتُ البهـــــاءِ البــــديعِ مـــا ميـــزةُ الحجـــمِ بهـــا والســـطوعْ؟
مـــاذا أتَـــتْ مـــن عمـــلٍ خالـــدٍ إذ كوفئـــتْ هـــذا الـــرواءَ البـــديعْ؟
لا لا فلـــمْ تفعـــلْ ولا آثـــرتْ أُبّهـــةَ المجـــدِ ولـــن تســـتطيعْ
صـــماءُ خرســـاءُ وقـــد سُـــخِّرتْ مـــنْ قُـــدرة الله لهـــدِي المطيـــعْ
أَبْـــدَعَهَا مُبـــدعُ أمثالِـــها واختصَّـها غـيرَ اختصـاصِ الجميـعْ[67]

وواضح من هذين المقطعين غلبة الفكر الفلسفي، وخفوت روح الشعر؛ ذلك أن الشاعر لم يكن يريد أن يصنع نصاً جمالياً ممتعاً ومطرباً، ولم يفكر على ما يبدو برواء الشعر وحيوية اللغة، ولم تعنه متعة القراءة وجمال التذوق، وإنما أراد أن يحاجج، ويجادل، ويقنع، ويقحم النظريات العلمية في الشعر، وهو أمر لا تطيقه القصيدة، وينوء بحمله الشعر، ولذا جاءت التجربة باهتة ضعيفة غير ممتعة .

وفي أحايين أخرى تأتي القصيدة عند العواد مباشرة ومسطحة، تجنح للنثرية، وتتحول من لغة الشعر إلى كلام مصفوف ليس من الشعر في شيء، بل هو إلى النثر العادي والمباشر أقرب، تأمل قوله :

أَجِبني: مَنْ هُمُ الأدباءُ؟ ما معناهم الأصْدَق؟

وهاتِ الحقَّ ..

وما الأدبُ الذي يعتزُّ كاتبُه وقارئُه؟

وقلْ بالله إنكَ لا تراوغ ..

---

(66) المصدر السابق: 27/2 (الساحر العظيم) وهو ديوان يضم قصيدة واحدة طويلة ومتنوعة القوافي، وصفها العواد بالملحمة، وتتضمن تهويماً فلسفياً عميقاً، بيد أن مستوى الشعرية فيها خافت جداً، ويكاد يكون معدوماً.

(67) المصدر السابق: 198/2 (في الأفق الملتهب).

إنَّ الحقَ لهوَ أحقُّ أنْ ينُطق ..

سؤالٌ قالهُ لي طالبٌ بالدَّرسِ يشتغلُ ..

وَبَانتْ فيه لهفتُهُ ..

وَبَانَ بوجهِهِ وَجَلُ ..

وأيّدَ رغبةَ التَّصريحِ بالإلحاحِ أيَّدَها ..

بتحديقٍ بعينيَ أَطْلَقَ الرُّؤيا وَقَيَّدَها ..

وَحَاصَرني بِرَغبته ..

وَحَصَّنَها ..

وَأَكَّدَهَا ..

وكنتُ أُريدُ أنْ أَمْزَح ..

فَنَاشَدَني بأنْ أَشْرَح ..

ولولا ذاكَ كانَ العذرُ أوسعُ أو هوَ الأسبق .. (68)

ولا أكاد أجد فرقاً بين هذا الكلام المصفوف وكلامنا الاعتيادي في حياتنا اليومية، سوى أن الشاعر حاول أن يموسق كلامه بإيقاع ساذج، والشعر لم يكن يوماً مجرد لغة مصفوفة بإيقاع رتيب، لكنه شيء أبعد من هذا وأعمق، وقريب من هذا النص قول العواد :

ولمْ يَنبِسْ فقلتُ: أطالبٌ يا صاحِ أنتَ؟

فقالَ: "أستاذٌ" و"دكتورٌ" من "السّربون" في الأدبِ

سَأرصدُ "للبروفوسوراه" وَقْتِي وهو مُطَّلبي

فقلتُ: خسارةٌ أنْ تشترِي الأوهامَ بالذهبِ

حرامٌ ضَيعةُ الأعمارِ في التمويهِ بالرتبِ

(68) المصدر السابق: 261/2، 262 (رؤى أبولون).

سرابٌ هذه الألقابُ إنْ لمْ ترفعِ البَشَرا

فَقَالَ: الجامعاتُ مثاقفٌ للشعبِ مُلْتَمِعَة

فقلتُ: وقيلَ هُنَّ منائرُ للعقلِ مُرتفعة[69]

فهذا شعر هزيل، وبعيد البعد كله عن روح الإبداع وجوهره، ولا أدري كيف أثبته العواد وارتضاه، إلا إن كان يريد قيمته المعنوية، وما ضمنه فيه من رؤية ورسالة، ولو كان على حساب الفن واللغة .

كما أن القارئ في شعر العواد ربما يتفاجأ بكسور عروضية واضحة، وخلل واضح في إيقاع البيت الشعري لديه، وكأنك تقرأ لشاعر مبتدئ تفوته قيود الوزن، وتخذله خبرته العروضية، وليس هذا قاصراً على نصوص البدايات، بل هو موجود في كثير من دواوينه، انظر على - سبيل المثال- إلى قوله :

إنَّمَا عثرةٌ وسَقْطٌ وتَخليطٌ وقِرديةُ تنمُّ نَمِيما[70]

وقوله :

أيُّها الدهرُ ويحكَ لو تفهمُ أو تُجيدُ الكلامَ حينَ تكرمُ[71]

وقوله :

املأ العالمَ عطفاً وإخاء يتزودْ منها ركبَ الحياة[72]

فهذه النماذج من الأبيات المفردة والمقاطع الشعرية لا تبدو مستساغة في القراءة، وليس فيها من رواء الشعر شيء، ومعلوم بالضرورة أن الإبداع الشعري والتحليق فيه لم يكن غاية عند العواد، بل كان وسيلة لبث أفكاره ورؤاه الإنسانية، ولا يعني هذا أنه لم (يرد) لشعره أن يكون ذا رونق حسن، فمثل هذا الهاجس موجود لدى الشعراء مهما

---

(69) المصدر السابق: 269/2 (رؤى أبولون).

(70) المصدر السابق: 43/1 (الساحر العظيم).

(71) المصدر السابق: 96/1 (في الأفق الملتهب).

(72) المصدر السابق: 217/1 (في الأفق الملتهب).

اختلفت درجات إبداعهم، وتفاوتت رؤاهم وطموحاتهم، وتباينت مستوياتهم، والأقرب أن العواد لم (يستطع) أن يحقق شرط الفنية العالية في معظم نصوصه[73].

وعندي – وأزعم أنه رأي ذوقي مؤسس- أن ضعف النص الشعري في تجربة العواد وافتقاره إلى الجماليات غالباً يعود -مع التعليلات السابقة- إلى كون موهبته الشعرية الفطرية ليست عالية محلقة، فهو في كثير من تجاربه صانع شعر أكثر منه شاعراً، وهذه الدعوى تبدو منطقية لمن يستقرئ منجزه الشعري وفاق رؤية جمالية مجردة، تتغيا فنيات الشعر دون أن تعير الرؤى الموضوعية اهتماماً، ومعلوم بالضرورة أن الموهبة المتدفقة شرط أساس لقدرة الشاعر على التحليق في عوالم الجمال والدهشة، وهي الرهان الذي لا يخسر أبداً في بروز الشاعر وعلو كعبه الشعري، وأظن أن موهبة العواد الشعرية لم تكن تسعفه على أن يذهب بعيداً في تجويد تجربته فنياً .

وإذا كان من غير المنصف اتهام الشاعر بالضعف، لمجرد وجود نص أو اثنين دون المستوى المطلوب، فإن الأمر يقتضي ألا نحكم على شاعر بالجودة لمجرد وجود نص أو اثنين فوق مستوى شعره إجمالاً، وإنما أريد القول: إن خطاب العواد الشعري يغلب عليه التواضع الفني والافتقار إلى الجماليات، بيد أن هذا لا يعني تلاشي التجارب الجيدة فيه، تلك التجارب التي تتألق لغتها، ويستجيب الخيال الشعري فيها للشاعر، فمثل هذه النصوص موجودة عند العواد، لكنها قليلة قياساً على التجارب الأقل فنية في شعره[74].

---

(73) يصعب أن يستعرض البحث عدداً أكبر من القصائد، لكنه يحيل إلى بعضها في ديوانه، وهي كثيرة جداً، وتكاد تكون ظاهرة بارزة في جميع دواوينه الشعرية، انظر – مثلاً – ديوانه: 9/1، 17، 18، 23، 29، 58، 62، 132، 134 165، ترى هذه النماذج بعيدة عن روح الشعر، وفيها من التكلف في النظم ما فيها، وهي من ديوان واحد، فكيف بباقي دواوينه؟

(74) من قصائده الجيدة قصيدته (ذكرى) في بعض مقاطعها (رؤى أبولون: 24)، ورثاؤه الرهاوي (نحو كيان جديد: 112) وغيرهما.

والملحوظ أن كثيراً من قصائد العواد تتقاصر فيه لغته، وتعجز عن استيعاب رؤاه؛ فتجيء صياغتها اللفظية مطبوعة بالتكلف، وتشعر أنها قسرت قسراً على مكانها، وخذ دليلاً على هذا ملحمته (الساحر العظيم)، التي تجد فيها كل شيء عدا الشعر؛ فلغتها – في كثير من مقاطعها- لغة علمية جافة، لا رواء فيها؛ إذ لم يستطع العواد تكييف لغته وتطويعها لمعالجة الرؤى المضمَّنة فيها من دون أن يقع في مأزق التكلف والأسلوب النثري الذي طبع القصيدة .

والطريف الغريب أن يأتي من يجامل العواد فيرى أن مثل هذه القصيدة تعد مكسباً للأدب؛ "لأنها جاءت في أسلوب فني"[75]، على حد تعبيره، والحق أنها مكسب تاريخي وتوثيقي للمعارك الأدبية، وفيها عمق علمي وفلسفي، أما أنها مكسب فني فأمر فيه نظر .

ولا أستطيع الاعتذار للعواد عن الوهن الفني في شعره بظروف الزمن المبكر نسبياً الذي ظهر فيه؛ ذلك أن ثمة شعراء جَايَلُوه، وكانت جُلّ منجزاتهم وتجاربهم الشعرية متألقة وعالية فنياً، وبخاصة على مستوى اللغة الشعرية، كحمزة شحاتة والقنديل وغيرهما[76].

ومع الاختلاف في أسبقية العواد في سياق التجريب في الأشكال الشعرية الجديدة[77]، إلا أن هذا لم يغيّر من مستوى تجاربه الفني شيئاً يذكر، بل ذهب بها إلى آفاق أبعد من النثرية والمباشرة، وهو الأمر الذي نراه في مثل قصيدتيه (تين وجميز) و(الغار) [78].

---

(75) عثمان الصوينع، حركات التجديد في الشعر السعودي المعاصر: 519/2، ط1، 1987م، (د. ن).

(76) يجدر بنا هنا أن نلحظ أن التفوق الفني لأولئك الشعراء، لم يمنحهم الضوء الذي ناله العواد، بريادته الفكرية والاجتماعية، فشاعر مثل حمزة شحاته – مثلاً – يعد واحداً من أبرز شعراء جيله فنياً، ومع ذلك لم ينل ما ناله العواد من الحظوة والتقدير البحثي.

(77) دعوى الأسبقية والريادة لمحمد حسن عواد في القوالب الشعرية الحديدة، وبالأخص في كتابه شعر التفعيلة، يحتاج إلى أن يفرد ببحث مستقل، ينطلق من فكرة التجريب نفسها، ويستدعي فكرة الوعي به، ويتقاطع مع تجارب الشعراء العرب الآخرين الذين يتنازعون هذه الريادة، كعلي أحمد باكثير، وبدر شاكر السياب، ونازك الملائكة.

(78) انظر: محمد حسن عواد، ديوانه: 22/2، 84، على التوالي (في الأفق الملتهب).

خاتمة

لقد حاول هذا البحث أن يعيد قراءة السيرتين الإبداعية والإصلاحية للشاعر المجدد محمد حسن عواد، مستثمراً أسئلة الريادة والإبداع بوصفها المنطلق الموضوعي الذي يمكن من خلاله الحصول على تفسيرات واعية وقريبة من العمق والمنطقية لريادة العواد ومكانته العالية بين أدباء عصره، وقد اجتهد البحث؛ ليكون أقرب إلى الموضوعية والإنصاف في تناوله إشكالية الريادة، وفي محاولته الدائبة للإجابة عن أسئلة تتعلق بحقيقة تلك الريادة ومفهومها، ومن ثم وضعها في سياقها الذي يراه البحث سليماً ومنطقياً؛ استناداً إلى حقائق ونصوص متفرقة في حياة العواد ومن منجزاته .

لقد كان العواد رائداً حقيقياً، ولم يكن سطوع نجمه في عصره، وبعد رحيله أمرا مستغرباً؛ ذلك أنه قد قاد معركة تنوير وإصلاح لمجتمعه، وقد ناضل من أجل تكريس مفاهيم إصلاحية يؤمن بها، وضحى بالكثير من الوقت والجهد والحرية؛ كي يصل إلى مبتغاه النبيل، وهو تنوير المجتمع وإصلاح كثير من سلبياته .

كما حاول العواد أن يرقى بفكرة الكتابة والإبداع، ودعا إلى احترام القلم والحرف والنص، واجتهد كثيراً في الدعوة إلى الرقي بالمستوى العام للكتّاب والمبدعين، كما شجّع ودعم وساعد المبدعين الجدد، وحمل لواء التجديد الإبداعي في الحجاز تنظيراً وتطبيقاً، لكنه في الوقت ذاته لم يستطع أن يرقى بإبداعه هو، وظلت كتاباته الإبداعية – وبخاصة الشعرية منها- متوسطة المستوى، ودون المتوسطة أحياناً، وخذلته موهبته الإبداعية في كثير من تجاربه الشعرية، فجاء شعره في المجمل العام عادياً، تغلب عليه الصناعة والتكلف، ولم يستطع أن يصل إلى مستوى عدد من أترابه ومجايليه، ولعل أبرزهم الشاعر حمزة شحاتة .

ومهما يكن من شيء، فإن التاريخ والذاكرة الأدبية والاجتماعية في المملكة العربية السعودية تحفظ للعواد شجاعته وريادته في مبادراته ودعواته التنويرية لمجتمعه ولمبدعي عصره، ولن يعيبه أن جاءت تجربته الإبداعية متقاصرة عن ريادته التنويرية؛ فالموهبة هبة ربانية لا يمكن أن يلام المرء على فقدها.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: الكتب

[1] *الأدب الحجازي الحديث بين التقليد والتجديد*، إبراهيم الفوزان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1401هـ .

[2] *أعمال العواد الكاملة* (الأعمال النثرية)، محمد حسن عواد، دار الجيل، القاهرة، 1401هـ .

[3] *تاريخ مكة دراسات في الصحافة والاجتماع والعمران*، أحمد السباعي، دار قريش، مكة المكرمة، ط2، 1383هـ .

[4] *التجربة الشعرية الحديثة في المملكة العربية السعودية*، محمد صالح الشنطي، النادي الأدبي بحائل، حائل، ط1، 1423هـ .

[5] *التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية*، عبدالله عبدالجبار، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، 1959م .

[6] *ثورات العرب*، أمين سعيد، مطابع الشعب، القاهرة، (د.ت) .

[7] *حركات التجديد في الشعر السعودي المعاصر*، عثمان الصوينع، ط1، 1987م، (د.ن) .

[8] *ديوان العواد* (الجزء الأول)، محمد حسن عواد، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ط1، 1978م .

[9] *ديوان العواد* (الجزء الثاني)، محمد حسن عواد، مطبعة دار العالم العربي، القاهرة، ط1، 1979م .

[10] *الرؤيا الإبداعية في شعر العواد*، محمد عبدالمنعم خفاجي وعبدالعزيز شرف، شركة الخازندار للتوزيع، جدة، ط1، (د.ت) .

[11] *الشعر الحديث في الحجاز*، عبد الرحيم أبو بكر، المطبعة السلفية، القاهرة، (د.ت).

[12]*الشعر الحديث في المملكة العربية السعودية خلال نصف قرن*، عبدالله الحامد، النادي الأدبي بالمدينة النبوية، المدينة النبوية، ط1، 1408هـ .
[13]*شعراء الحجاز في العصر الحديث*، عبدالسلام طاهر الساسي، النادي الأدبي بالطائف، الطائف، ط2، 1402هـ .
[14]*العواد قمة وموقف*، عبدالحميد مشخص ومحمد سعيد باعشن، دار الجيل للطباعة، مصر، ط1، 1980م .
[15]*فصول من النقد عند العقاد*، محمد خليفة التونسي، دار نهضة مصر، القاهرة، (د.ت).
[16]*قاموس الأدب والأدباء في المملكة العربية السعودية*، مجموعة من المؤلفين، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ط1، 1435هـ .
[17]*محرر الرقيق*، محمد حسن عواد، النادي الأدبي الثقافي بجدة، جدة، 1396هـ.
[18]*محمد حسن عواد شاعراً*، آمنة عقاد، دار المدني، جدة، ط1، 1985م .
[19]*النزعة الإسلامية في الشعر السعودي*، حسن الهويمل، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة على تأسيس المملكة، الرياض، ط1، 1419هـ .

ثانياً: الدوريات

[20]*دورية علامات* (العدد 52، النادي الأدبي الثقافي بجدة، يونيو، 2004م).

Muhammed Hassan Awaad
Innovation and leadership questions

Dr. Saleh Abdulaziz Almahmood
Assistant professor in the Faculty of Arabic Language
Imam Muhammad Bin Saud Islamic University

Abstract. Muhammed Hassan Awaad is considered as one of the most prominent enlightment names in the social and intercultural remembrance at Kingdom of Saudi Arabia. His reformative and and innovative emergence was at a difficult time when the society was stumbling. At that time, he was so passionate about learning and knowledge.On the other hand, he was sympathetic about his society, striving to reform and enlight. Whenever Awaad is mentioned, his unique writing capability of society reform is remembered. It was not unusual to find his name standing in the publications of those who observe the social and literary movements and those who talk about community regeneration and reform in Saudi Arabia before and after Kingdom union.

However, this leadership of Awaad is controversial. Various questions are raised. Is it a reformative social leadership ?or a literary innovative one? since he is a social reformist as well as an innovative literary author who left behind him a rich writing legacy.

This research is an attempt to read the leadership concept Awaad earned aiming to frame this concept in its true context by using arguments and evidence from his own publications.

Moreovere, this research try to trial some of Awaad's texts based upon a reflective vision. Firstly and lastly, this research stems from a researcher's personal effort, opinion and his capability to invest evidence, events and texts to attain the truth.